الكتابات السياسية الكاملة

القائد المؤسس ميشيل عفلق

في سبيل البعث - الجزء الأول

الباب الخامس – في القومية العربية

القومية قدر محبب - 1940م

قلما يفكر المرء بالأشياء البسيطة، مع أن في بساطتها سراً يفوق الأسرار. من ذا يفكر باسمه ووجهه؟ إنهما قدر يلازمه طوال ثواني حياته. القومية كالاسم الذي يلصق بنا منذ ساعة ولادتنا، ومثل قسمات الوجه المقدر علينا حتى من قبل أن نولد في وراثة ابوينا وأجدادنا. إننا نألف اسماً ولا نجيب إلا إذا نودينا به، ولو كنا نفضل عليه أسماء أحسن وقعاً، كما نقبل بوجهنا ونستشف به خفايا نفسنا وصورة شخصيتنا، ولو أنه لا يحقق دوماً كل شروط الجمال.

متى انتبه الإنسان إلى قدره يخرج من حالة الحياة السطحية ويدخل في جريان الحياة الحارة القوية، فإذا رافق عنده هذا الانتباه إلى القدر، القبول به، اتخذت حياته اتجاهها واتسمت بالرجولة.

القومية للشعب كالاسم للشخص والملامح للوجه، هي قدر قاهر يسير مجموعة من البشر في مجرى من الحوادث والظروف فريد، وينسج عليه غلافاً من الصفات متميز الشكل. وكما أن من العبث أن يضيع المرء عمره في اللهف والأسف - لو ولدت في غير هذا البيت ووجدت على غير هذه الصورة - فإن من الجهد الضائع أيضاً أن يحاول الإنسان التحلل من رباط قوميته التي أحكمت شدها به أصابع القرون، ولكان أجدى به أن يقول: ما دامت طريقي معينة، ومسرح نشاطي محدداً، فلأملأ كل خطوة من خطوات الطريق بأقصى جهودي، ولأظهر على هذا المسرح كل بطولتي، هذا هو قدري فلأكن به خليقاً.

هبوا أمرءاً تستيقظ فيه قوميته، ولم تتضح له إرادة هذا القدر فيقبل بها ويريدها، أي رجل هو؟ إلى أي تاريخ ينتمي؟ ماذا يهبه الماضي من فخار، ويرتب عليه الحاضر من مسؤولية؟ أية أماني تجتذبه إلى المستقبل وتعلو به فوق حدود فرديته وانانيته؟ هل له مميزات تبين له في الحياة اتجاهه وتضيء له سبيله؟ أو بتعبير آخر، هل له اسم، هل له ملامح؟

إنني كلما فكرت في حالة امرئ كهذا ترتعد فرائصي ذعراً من صورة الشقاء الذي يضمه، وصقيع العزلة التي تنأى به... أي ضيق في أفقه، وأي فقر في روحه، وأية تفاهة وشحوب في حياته؟ يعيش عمره وهو لا يدري أنه فرع من نبتة تغور أصولها في أحشاء الماضي، وتمتد أغصانها على امتداد العصور، ولا يعلم أنه واحد من الملايين الذين تعاقبوا خلال القرون والأجيال، فحرثوا الأرض وشادوا العمران وأعملوا الفكر وأذابوا الأرواح وحاربوا وسقطوا صرعى الحروب، كل ذلك ليكتبوا تاريخ أمتهم سطراً سطراً، وليرفعوا بنيانها حجراً حجراً، وليوضحوا عبقريتها ويتابعوا رسالتها. وكل هذه الملايين جاهدت وجالدت وصارعت العواصف وصمدت للنكبات لكي تخرجه من ظلمة العدم إلى نور الحياة، لكي تلده هو، هذا الغافل الناسي، لتغني حياته بحياة الملايين، وتدعم نشاطه بجهود مئات

الأجيال، ولتحمله مسؤولية الماضي وشرف هذه المسؤولية، لتوجد له اسماً ينادى به وملامح تعرفه بين الأمم، كيلا يبقى زيداً أو بكراً من الناس، بل ليستطيع القول إذا تفاخرت الشعوب: أنا عربي.

قد يكون قاسياً هذا القدر الذي ألقى بنا في عصر الضعف والمذلة والتأخر والتفرقة، بدلاً من أن يوجدنا في عصر الوليد أو الرشيد، فنسند إلى دولة عزيزة منيعة، وشعب ناشط موحد الكلمة، وحضارة ساطعة الضياء. وقد يكون القدر أحياناً قاسياً ولكنه عادل أبداً، فهو لا يوزع البطولة إلا بنسبة الصعوبة، ولا يورث المجد إلا بقدر الجهد. فلن تكون في نظره بطولة الذين يجاهدون اليوم ليحرروا بلادهم من استعمار الأجنبي وخطر التجزئة وينشلوها من هوة الجهل والفقر، بأقل من بطولة قتيبة وابن نصير. وإذا كان عصر الرشيد والمأمون قد اتسع لإنتاج الفلسفات والآداب، فسيكون كل واحد من أبطال اليوم في نظر الجيل الآتي موضوع ملحمة خالدة، وتكون تضحيته منشأ فلسفة جديدة.

المصدر:

ميشيل عفلق، الكتابات السياسية الكاملة، في سبيل البعث، الجزء الأول، الباب الخامس: في القومية العربية، القومية قدر محبب - 1940م